علم النفس الانموذجي

يُتَّهم علم النفس بانهُ من العلوم التي لا يُرجى لها وضع ثابت تستقرُّ فيهِ وانهُ من العلوم التي لا يُدرك كثيراً الى نتائج البحث فيها . ذلك ان الناس ينظرون الى هذه السرعة البنائية التي تتوالى فيها فروض هذا العلم ونظرياته متضاربة متناقضة ، فيشكُّون في ان سيكون من وراء هذا شيء من الاتزان والاستقرار على وضع ثابت لهذا العلم ليستطيع الناس بعدها ان يقطفوا ثمرة من ثماره التي طال اشتياق النفوس لها . لانهم يحسبون انهُ يستحيل ان تُستغلّ حقائق هذا العلم ما بقيت فروضه ونظرياته تتصادم وينسخ بعضها بعضاً على هذا النحو المشهود

ولكن لنا ان نسأل : هل هذا عيب علم النفس وحده — ان صحَّ انهُ عيب ؟ ألا يشاركه غيره من العلوم في هذا الذي يُنعى عليهِ من بعد عن الاتزان والاستقرار المطلق؟ يكفي للاجابة عن هذا ان تنظر الى فرع واحد من فروع العلم كان يُظن انهُ بلغ الغاية القصوى من النضوج والاتزان حتى اصبح يخشى عليهِ ان يصبح يوماً متحجرة من متحجرات العلم — هذا العلم هو علم الرياضيات . فقد كان يُظن ان الاوائل لم يتركوا للاواخر فيهِ شيئاً ، وان قصارى المشتغلين فيهِ السير فيما خطَّهُ لهم اقليدس ونيوتن وبضعة نفر آخرين . ولكن ما كان اعظم دهشة الناس لما طالعهم اينشتين بنظريته التي ارتهم ان ما كانوا يحسبونهُ حقائق خالدة لا تعدو ان تكون حقائق نسبية يغير عليها الزمان والمكان بالتحويل والتبديل كما يغيران على كل شيء في هذا الوجود . والذي نحسبهُ السبب في ان الناس اصبحوا شديدي التبرم بعلم النفس قليلي الصبر عليهِ هو ان هؤلاء الناس يتوجهون بكليتهم الى هذا العلم ليحلَّ لهم مشاكلهم المركبة ويبسط امامهم ما التوى من مسالك الحياة المعقدة . ولكن علم النفس في حالتهِ الراهنة عاجز عن ان ينيلهم دفعة واحدة ما يريدونهُ منهُ ، فيرتدون عنهُ محنقين غضاباً كما يرتد المحب عن الحبيبة اذ يلحظ انها لا تبادله هياماً بهيام وانهُ يخاص لها الود وهي تخون . ونزعم انهُ لو كان يهم الناس من امر الرياضيات والطبيعيات حتى والطب قدر ما يهمهم من امر علم النفس لرموا هذه العلوم بما يرمون بهِ علم النفس او اكثر . ولكنهم ، في الغالب ، لا يهمهم هل يلتقي المتوازيان او لا يلتقيان ، وهل للاشياء ثلاثة ابعاد او اربعة او لا بعد لها قط ، وهل يتناهى الكون او لا يتناهى . والطب على شدة اتصاله بهم لا يهمهم منهُ ما فيهِ من تخييب للآمال ودعوى لا يبددها في اكثر الاحيان مبدّد ، لان

الذين يرون انفسهم في حاجة الى مبضع الطبيب وعقاقيره فلاتل وعلمهم ليست من نوع واحد . في حين أن الذين يتوجهون الى علم النفس لعلمهم ومشاكلهم النفسية هم السواد الاعظم من الناس

على ان هذا الذي يلاقيه علم النفس من انتقاد لم يقعد بالمشتغلين به عن السعي المتواصل سواء انفضى هذا السعي الى نتيجة محسوسة أم الى غير نتيجة . وعلم النفس الانموذجي الذي نحاول ان نبسطهُ فيما يلي يمثل لنا المرحلة الاخيرة التي بلغها البحث النظري في علم النفس (١)

كان هذا الاتجاه الجديد لعلم النفس رد فعل لفلسفة السلوكيين التي تقول : ان جميع مظاهر النشاط العقلي لا تعدو ان تكون مجموعة بسيطة من ردود الفعل المؤثرات مختلفة تباشر الحواس وينتقل اثرها الى الدماغ . هذا التبسيط لعلم النفس قد ارضى كثيرين من اصحاب النزعات الميكانيكية المغرمين بالمعادلات الرياضية والقوانين العامة الشاملة ، ولكنهُ اسخط من ناحية ثانية فئة اخرى من علماء النفس ، فراحت تنتقد هذه الفلسفة انتقاداً هادئاً رزيناً مبنيًا على سلسلة من المشاهدات والاختبارات الحديثة . فكان لنا من ذلك هذا الاتجاه الجديد لعلم النفس . وهو اتجاه يقلل من حماسة المغرمين واصحاب علم النفس التطبيقي لانهُ اظهر لهم ان عملية التربية اعضل واصعب مما كانوا يتوهمون

وقد نشأت الانموذجية هذه في المانيا . وزعيما هذه المدرسة هناك هما كهلر Kohler وكوفكا Koffka والاول كتاب ضخم ضمَّنهُ نتيجة مباحثه واختباراته التي اجراها على القردة باسم «علم النفس الانموذجي» . والثاني كتاب «نمو العقل» Growth of the Mind والكتابان من اصعب واجف ما كتب في علم النفس

واساس هذه النظرية ان الصور الذهنية الحاصلة من جراء بعض المؤثرات ليست نتيجة بسيطة لمجموع هذه المؤثرات انما هي نتيجة للانموذج الذي تصنعهُ هذه المؤثرات لدى اتصالها بعضها ببعض . فلو اصغى مصغ الى نغمة موسيقية تتألف من عدة اصوات لما تمكَّن ان يميز كل صوت عن الآخر مهما ادمن الاصغاء . وذلك ان النتيجة الحاصلة ليست مجموع الاصوات المفردة انما هي نتيجة تتوقف على تأثير الامواج بعضها في بعض ، وهو تأثير في غاية التعقيد . فاتصال الاصوات بالاذن في هذه الحالة ليس اتصالاً مباشراً ، لاننا نعلم ان الامواج التي تكوّن النغمة الموسيقية تتداخل وتتشابك قبل أن تبلغ الاذن . ولعلَّ القارئ يدرك لماذا يصعب على المرء ان يكتشف خطأ او نقصاً مقصوداً في صورة حتى لو نبه الى وجود هذا الخطأ او النقص قبل الشروع في فحص الصورة . وسبب ذلك أن العقل يأخذ الصورة وحدة تامة ، ولا يستطيع ان يأخذها جزءا جزءا . ولو اسقطت بعض الحروف

(١) ارجع الى مقالة : علم النفس امس واليوم مجلد ٧٨ عدد مارس من المقتطف

من هذه المقالة عمداً او سهواً لاستطاع القارىء ان يمرّ عليها دون ان يكتشفها بسهولة . فهو لا يقرأ الاحرف منعزلة . انما هو يقرأها بالنسبة للانموذج الذي تدخل في تركيبه ، وهو الكلمة ثم الجملة ولذا لا يجد العقل مشقة في الوصول الى المعنى الصحيح متخطياً الرمز الخاطىء دون ان يحس به . وليجرب القارىء هذه التجربة البسيطة فيدرك ان للانموذج الذي تتكوّن منهُ المؤثرات الاولية الشأن الاول في تقرير نوع التأثير الحاصل. درّب نفسك على العد من ١ — ٩٠ جاعلاً وحدة العد (٣) — مثلاً — هكذا — : ٣ — ٦ — ٩ — ١٢ — ١٥ الخ ، فتجد بعد حين انك قد حذقت العد على هذا النحو . ولكن جرّب ان تعكس الامر ، فتعدّ مبتدئاً من التسعين الى الخلف هكذا : ٩٠ — ٨٧ — ٨٤ — ٨١ — ٧٨ — الخ ، فتجد ان حذقك العد بسهولة من ١ — ٩٠ لم يجدك كثيراً في تسهيل العد من الخلف ، مع ان العمليتين بحسب الظاهر من نوع واحد وهما في الحقيقة ليستا كذلك ، لان الانموذج الذي يتكوّن من الاعداد متوالية على النحو الاول غير الانموذج الذي يتكوّن من الاعداد متوالية على النحو الثاني

هذه امثلة تبين لنا ان لنوع الاتصال بين المؤثرات الشأن الاول في تقرير النتيجة الاجمالية لها غير انهُ يعقّد هذه النتيجة ايضاً حالة العضو الذي تقع عليهِ المؤثرات . فزيد صديق لك يلاقيك وقبضة يده مسددة الى وجهك ، فلا يكاد يرفّ لك جفن . وعمرو عدوٌّ يبادرك بمثل ما بادرك به زيد ، فتشعر ان عليك ان تسلك معهُ مسلكاً آخر غير الذي سلكتهُ مع زيد . فتحفز لدرء هذه اللطمة التي سقطها او لترد لهُ مثلها او اكثر ان استطعت او انك تحاول ان تصرف اذاه عنك بالتي هي احسن . فهنا مؤثر واحد انشأ نتيجتين مختلفتين تبعاً لحالة العضو الذي وقع عليهِ التأثير . كذلك قد تجد ان منظراً من المناظر يثير فيك سلسلة من الخواطر المبهجة ، بينما هذا المنظر بعينه قد يزخر نفسك يوماً آخر بالآلام والذكريات المبرحة

ولا يقف تعقيد الانموذج عند الحد الذي اسلفنا ، بل هو يتعداه الى نواحٍ اخرى. فالانموذج الحاصل من تلاؤم بضعة مؤثرات ظاهرة يدخل في تركيبه غير هذه المؤثرات مؤثرات اخرى مستقرة قد لا تقع في دائرة الشعور . ومن هنا يذهب الانموذجيون الى ان عملاً من الاعمال لا يصح ان يحسب نتيجة للمؤثرات الآنيّة البادية فقط ، بل يشترك في تكوينه عوامل وذكريات ومؤثرات سابقة . فالمجرم الذي يصوّب مسدسه الى صدر فريسته لا يعد عمله — في رأيهم عملاً جنونيًّا ، لان هذا العمل لم يكن ابن الساعة ونتيجة لعوامل ظاهرة يمكن للعقل تدبرها وفحصها والسيطرة عليها . انما كان محصل المؤثرات الحاضرة والسالفة معاً . فعمل المجرم هو بمثابة انفجار سدّ مائيّ . فكما انهُ لا يجوز ان نحسب انفجار هذا السد نتيجة لضغط الماء عليهِ في اللحظة التي سبقت الانفجار ، كذلك

لا يجوز ان نحسب عمل المجرم نتيجة للعوامل التي كانت السبب المباشر في ارتكابه الجرم فقط . ومن هنا لا يشتط الانموذجيون كثيراً في تلويم المجرمين

وفي الحقيقة ان مبدأ النماذج السيكولوجية يفسر لنا ظواهر عقلية عديدة تفسيراً لم يكن ميسوراً للسلوكيين ومن نحا نحوهم من اصحاب النزعات الميكانيكية في علم النفس . ومن هذه الظواهر ما يسميه علماء النفس بالعواطف المركبة . مثال ذلك عاطفة الكره فهي — على الغالب — تتكوّن من عاطفتين اساسيتين : عاطفة الغضب وعاطفة الخوف. فالمكروه يجب ان يكون مما يثير الغضب والخوف في الوقت نفسه . فالذي يُغضب لا يثير الكره اذا لم يخُف ، لان الغاضب ، في هذه الحالة يستطيع ان يفتأ حمأة غضبه بايقاع الاذى فيمن اثار غضبه دون ان يخشى عاقبة . فالطفل الذي يرتكب عملاً يثير غضبك لا يثير فيك شيئاً من الكره ، لانهُ لا يثير فيك عاطفة الخوف حينما تحاول انزال القصاص به على فعلته. كذلك المخيف وحده لا يثير فينا عاطفة الكره . فأنت اذ تطل على مهواة عميقة ترتجف اوصالك لدن ترسل بصرك الى قعرها . ولكن هذه المهواة لا تثير فيك شيئاً من عاطفة الكره ، لانها لا تثير فيك العاطفة الاخرى التي تدخل في تركيب عاطفة الكره وهي عاطفة الغضب . وتستطيع ان تأخذ غير هذه العاطفة وتمضي في تحليلها على هذا النحو. ولكن ما علاقة هذا بما نحن في صدده ؟ علاقته ان هذه العواطف المركبة تمثل لنا كيف ان عاطفتين اساسيتين او اكثر اذا اثيرتا في ذات الوقت نجمت عنهما نتيجة تختلف عن كل من هاتين العاطفتين . ففي مثالنا السابق نحس ان عاطفة الكره ليست بعاطفة الخوف او الغضب او مجموعهما انما هي محصلة لهما . ولذا فهي تختلف عنهما كما يختلف المركب الكيماوي في خصائصه عن العناصر التي تكوّنهُ. ويحسن ان نؤكد هنا ان احدنا يحس احياناً كثيرة بنوع خاص من العواطف لا يدري ما هو والى اي المصادر يرجعه. فكثيراً ما يحس احدنا انهُ قلق غير مرتاح ، ولكنهُ لا يستطيع ان يعين مصادر هذا القلق بالضبط . فيعجب اذ يرى نفسه قلقاً لغير سبب ظاهر. والحقيقة ان المرء في هذه الحالة يكون تحت تأثير عدة عواطف ينتج له تفاعلها هذه العاطفة المركبة التي لا يستطيع ادراك كنهها . والسوداء هي من هذا القبيل

هذه امثلة وتعليلات اوردناها لنبين ان التأثير النهائي يرتكز على اتصال المؤثرات بعضها ببعض اي على الانموذج الذي يُصنع منها وعلى الاحوال التي تحيط بهذه المؤثرات والعضو المتأثر ، وهي ، على كل امثلة نظرية . ولولا ما قام به كهلر وغيره من مؤيدي هذه النظرية من اختبارات جاءت مؤيدة للاساس النظري لهذا المذهب ، لما لاقت ما لاقته من رواج يكاد يجعلها الحل الاول بين النظريات المختلفة لتفسير ظواهر العقل

من هذه الاختبارات انه كان يؤتى بصندوقين لون الواحد ابهى من لون الثاني . وكان يوضع في الصندوق الابهى لوناً قطعٌ من الحلوى ، ثم يوضع الصندوقان في مشهد من احد الاطفال . فتعلّم الطفل ، بعد عدد من التجارب ، ان يختار الصندوق الباهي اللون وينال ما فيه من قطع الحلوى . ولكن عندما استبدل الصندوق الذي لا حلوى فيه بصندوق آخر ابهى من صندوق الحلوى لوناً اخذ الطفل يتجه في اختياراته الى الصندوق الاخير الخالي من الحلوى . وهذا يدلنا دلالة صريحة على ان الاتصال بين الطفل والمؤثر الذي هو صندوق الحلوى في هذه التجربة لم يكن اتصالاً مباشراً منزلاً — انما كان اتصالاً نسبيًّا غير مباشر — اي كان يتوقف على الانموذج الذي يتكوّن من مجموعة المؤثرات التي كانت تعرض امام الطفل

ومثل هذا اختبار أُجري على دجاجة في قفص . فكان يوضع الى جانبها ورقتان الواحدة ابهى لوناً من الاخرى . وكان يوضع على الورقتين حبوب من القمح . ولكن لم يكن يسمح لهذه الدجاجة ان تنقد الحب الا عن الورقة ذات اللون الباهي . وبعد حين تعلمت ان لا تتوجه الا الى الورقة المحلل لها نقد الحبوب عنها . وبعد حين رفعت الورقة ذات اللون الخفيف ووضع مكانها ورقة اوضح لوناً من الورقة الباقية ووضع عليها مقدار من الحبوب . فلم تتوان الدجاجة عندما ان تنقد الحب عن الورقة الاخيرة . وهذا يدلنا ان الاتصال بين الدجاجة والورقة لم يكن اتصالاً بسيطاً انما كان اتصالاً مركباً تدخل فيه نسبة الالوان بعضها الى بعض في الورقتين

ومن هذا القبيل اختبار اجراه كهلر على الشمبانزي. فقد كان يقدم الى هذا الحيوان صندوقين يختلفان في حجم الباب الامامي لهما . وكان يضع طعاماً في اكبرهما باباً . فتعلم الشمبانزي بعد عدد من التجارب ان يختار الصندوق الذي يحتوي الطعام . ثم رفع كهلر الصندوقين ووضع بدلهما على التوالي ازواجاً من الصناديق مختلفة في سعة ابوابها . فكان الشمبانزي في كل الاحوال يختار اوسع الصندوقين المعروضين باباً بصرف النظر عما اذا كان الطعام فيه او لا . وفي هذا ايضاً برهان واضح على ان الاتصال بين الفرد والصناديق كان اتصالاً معقداً يتأثر بشكل الانموذج الحاصل من عرض الصندوقين معاً

وليس ما تقدم هو كل ما اجري من تجارب في هذا الشأن . فقد اجرى كهلر وغيره تجارب عديدة غير هذه كانت كلها مؤيدة لهذا الاتجاه الجديد في علم النفس . وهو اتجاه لا ندري اين يقف بنتائجه

شرقي الاردن اديب عباسي